

الكرامة

كرامة الوطن من كرامة المواطن

عن الطوفان القادم لامحالة - "قيادة طورائ" لثورة مصر ضد الطغيان د.رعوف عباس

الثلاثاء، 4 إبريل 2006

شعور مشروع بقلق ينتاب بعض الأعلام الوطنية - هذه الأيام حول غياب رد الفعل الجماهيري إزاء الواقع المصرى الراهن الذي بلغ أقصى مستويات الفساد ، فساد لم تشهد مصر مثيلاً له منذ أيام مينا موحد القطرين، وبلغت الكوارث حداً تجاوز كل الحدود، الخراب الاقتصادى، والخراب السياسى، ورهن مستقبل أجيال قادمة من المصريين، والتفريط في المصالح القومية، كل ذلك يحدث للمصريين وهم لا يتحركون، وكأن مايجرى لهم وعليهم يحدث في بلد آخر، وطرح البعض سؤالاً مشروعاً "أبضاً" هو : ماذا حدث للمصريين؟

ولهذه الأعلام الوطنية عذرها، فلم يستطيع أحد أن يضع يده علي قوانين الحركة والسكون لهذا الشعب العجيب، حتى من وقفوا حياتهم لدراسة تاريخه منذ فجر التاريخ حتى اليوم .

ولعل هذه المعرفة الغائبة بقوانين الحركة والسكون هي التي أغرت الحكام بالإمعان في إستبدادهم وظلمهم، والتماهى في فسادهم ، طالما يتفرعن الفرعون عندما لايجدمن يردعه، ولعل ذلك يرجع إلى جهل الحكام وعدم وعيهم بالتاريخ. ومن ثم استهانوا بالشعب الذي يببومستكيناً لهم .

إن من يسترجع تاريخ مصر علي مر العصور سوف يفاجأ بأن هذا الشعب الوديع الصبور يتفجر ثورة كالبركان فجأة دون سابق إنذار، وتندفع ثورته كالطوفان فتدمر كل شئ. وتبدأ بسحق الحكام والطبقة الإجتماعية التي ساعدتهم علي سرقة قوت الشعب وإذلاله.

ولم يسلم من ذلك الفراعنة رغم ماكان لهم من صفات الألوهية ، فعندما قامت الثورة الإجتماعية الكبرى في عهد الدولة الوسطى، هدم الثوار القصور علي رؤوس أصحابها وقتلوهم بأيديهم، بل هاجموا مقابر الفراعنة ونهبوا ما فيها وسادت حالة من الفوضى جميع أرجاء البلاد دامت ثلاث سنوات تقريباً.

وتكررت مثل هذه الثورات العارمة علي طول تاريخ مصر ضد الرومان، والعرب، والمماليك، والأتراك فوقعت حركات ثورية فلاحية، كما شهدت المدن صيحات جماهيرية، جاءت كلها تعبيراً عن رفض المصريين للظلم والاستبداد، وإحتجاجاً علي الفساد، وأبدعت بعض تلك الحركات تنظيمات ثورية قادت الجماهير في مواجهة عنيفة ضد طغيان السلطة، ولم يسلم عصر محمد علي باشا، من مثل تلك الحركات التي وقعت بالصعيد واحتاجت جهداً كبيراً لقمعها، وكذلك شهد عصر الخديوي اسماعيل، حركات مماثلة، وكان لهذه الخبرات الشعبية الثورية أثرها في الثورة المصرية التي قادها أحمد عرابى، وفي المقاومة الشعبية للاحتلال البريطانى.

وإذا كانت مصر قد شهدت في عهد الإحتلال البريطانى حالة من الركود في حركة الجماهير علي نحو ماتشدهه اليوم، حتى أن راسل باشا، "حكمدار - بوليس القاهرة الإنجليزى" كتب في مذكراته يصف المصريين بالجين مستدلاً علي ذلك بما يحدث في مشجارات المصريين، حيث يحمل المتشاجرون مختلف الأسلحة، ويتبادلون التهديد والوعيد ولكنهم نادراً ما يعنون ذلك ، وتنفض المشاجرة بسلام ، وختم ذلك بقوله : إن ثورة المصريين تطفأ ببصقة.

قبل قيام ثورة 1919 بأسبوع واحد كتب المندوب السامى البريطانى إلى حكومته أن الأمور هادئة ومستقرة، وأن الجماهير المصرية منصرفة إلى حياتها دون وجود ما يثير القلق، فإذا بيركان ثورة 1919 يثور فجأة من أدنى البلاد إلى أقصاها، وإذا العنف الثورى يدمر فى طريقه كل ما إتصل بسلطة الإحتلال والمتعاونين معه .

وقبل تحرك قوات الجيش المصرى ليلة 22-23 يوليو 1952 بنحو نصف ساعة أبرق القائم بالأعمال البريطانى إلى الخارجية البريطانية بأن كل شئ على مايرام، وأن الأمور مستقرتتماماً ، وأن الملك يمسك بزمام السلطة بقوة بالغة ، وقبل أن تصل البرقية إلى لندن كان الثوار قد استولوا على قيادة الجيش وفاضت الشوارع بالجماهير المؤيدة للثورة ودارت عجلة التاريخ .

وبين هذا وذاك ، كانت الجماهير المصرية تنطلق لتضع الأمور في نصابها: في 1935 الجبهة الوطنية المطالبة بال دستور، وفي 1946 الحركة الجماهيرية المعادية للإستعمار والظلم الإجتماعى، وبعد ذلك هبة الجماهير فى يناير 1977 وانتفاضة جنود الأمن المركزى "أعني المجندين من الفلاحين والكادحين" بما كان لها من مضامين ودلالات اجتماعية فى العهد غير المبارك .

فصبر المصريين على الظلم الإستبداد والفساد وسلبيتهم فى التصدي لطغيان الحكام أولا بأول، لايعدى الإستكانة وإستعذاب الألم والنطاعة، كما يظن أصحاب بعض الأقلام الوطنية التى راحت تصب جام غضبها على المصريين: فأصول الإقتصاد المصرى يتباع بأبخس الأسعار، بل تهدر قيمتها لصالح فئة من رجال الأعمال تلعب مع أركان النظام الفاسد دور دود العلق الذى يمتص دماء الإقتصاد المصرى وعمال شركات القطاع العام ينضمون إلى جيش العاطلين، ثم لا يحرك العمال ساكنا، وخط الفقر يمتد ليضم تحته أكثر من نصف المصريين فى ظل تدنى مستوى المعيشة الذى جعل المصريين يأكلون أرجل الفراخ وهياكلها العظمية لأول مرة فى التاريخ ، فأصبحت اليوم عزيزة المنال بفضل أنفلونزا الطيور.

وجيش العاطلين يزداد طولاً وعرضاً والمشاكل الإجتماعية تزداد حدة، ووسائل الإعلام الرسمية تشيد بعبقرية الرئيس، وتلهث وراء تسويق الوريث.

فلا عجب أن يصل اليأس ببعض أصحاب الأقلام الوطنية إلى كتابة مايشبه نعي الشعب المصرى إلى البشرية ، ويلتس أى مراقب للواقع المصرى، لهؤلاء الكآب العز عندما يرى أوضاع مصر تتردى دون بارقة أمل فى بصيص نور آخر النفق المظلم البغيض.

ولكن تاريخ هذا الشعب المفترى عليه يشى بأن إحتدام الأزمة الإجتماعية والسياسية يصل بالسخط الكامن فى النفوس إلى درجة الغليان، وتبقى لحظة الانفجار رهنا بقدرة قشرة السلطة المتهالكة على كتم فوهة البركان. إنفجار الغضب الشعبى وارد فى أى لحظة دون سابق إنذار، وطوفان الثورة الشعبية يتوقعه كل من يعرف المعدن الأصيل لهذا الشعب، حين ينفجر البركان -أى بركان- ويقع الطوفان -أى طوفان- بجتاح عادة كل كل من يقف فى طريقه ويطيح به، ولا يترك وراءه إلا الدمار الشامل وأكوام هائلة من الأنقاض، يسكن بعدها البركان ، وينتهى الطوفان ، وتبقى مهمة إزالة الأنقاض، وإعادة البناء.

وتعطينا التجربة التاريخية صورة واضحة لذلك فقد كانت الثورات الشعبية العارمه للجماهير المصرية بحكم عفويتها وإفتقارها إلى التنظيم "فى معظم الأحوال"، تنتهى على يد السلطة الطاغية التى تستجمع قواها، وتلملم أنقاضها، مستفيدة من غياب القيادة الجماهيرية القادرة على طرح الأسس التى يقوم عليها البناء الجديد، بإستبعاد النفايات والأنقاض.

وإذا كان البركان سوف ينفجر دون سابق إنذار والطوفان سوف يجتاح كل ما يقف فى طريقه لامحالة، يجب على الحركة السياسية المصرية أن تعد للأمر عدته فتقيم "قيادة الطوارئ" التى تعمل على "ترشيد" ثورة البركان وتوجيه حممه الوجهة التى تخدم البناء المستهدف، وتتأهب لتحديد الطريق التى يتجه إليها الطوفان حتى لا يخلف وراءه الأثار السلبية التى تمكن قوى الإستبداد والطغيان من لملمة أنقاضها والعودة من جديد.

"قيادة الطوارئ" مطلوبة اليوم بإلحاح، وتعنى فى تصورى- تكوين جبهة وطنية من القوى السياسية المعادية للظلم والفساد والإستبداد وتلتف حول برنامج وطنى يمثل فرقاء الجبهة الوطنية، والخطوط العريضة لإعادة بناء النظام السياسى على أسس ديمقراطية، وإعادة بناء الإقتصاد الوطنى بما يكفل الحياة الكريمة لجميع المصريين دون إقصاء أو تهميش أو إستثناء ، وإعادة مصر إلى موقعها الإقليمى والدولى.

لقد أنفقتنا وقتاً طويلاً فى تشخيص الداء، وأن لنا أن نضع وصفة العلاج، وأن يتم إلتحام حقبى بين الجبهة الوطنية المقترحة والجماهير قبل أن يحول الطوفان الجميع إلى أنقاض.